المادة: السيرة النبوية

المحاضرة: ثقافة محمد ρ وحياته الروحية قبل البعثة

المرحلة: الأولى

الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET

THE HISTORY OF THE MASSAGE: THE LIFE OF THE PROPHET (PBUH) BEFORE THE MISSION

THE FIRST STAGE

ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

ثقافة محمد ρ وحياته الروحية قبل البعثة:

على مستوى العقائد الدينية، لابد أن الرسول ρ كان محيطا بشكل دقيق بأحوال قومه من المشركين بحكم عيشه في مكة، أما العقائد الأخرى من يهودية ومسيحية ومجوسية وغيرها فإن وجود جاليات وأفراد يعتنقون هذه العقائد في مكة والمدينة وغيرها من أنحاء الجزيرة العربية تجعل من المحتم على الرسول ρ أن يعرف شيئا عنها، والمصادر التاريخية لا تزودنا بمعلومات دقيقة عن مدى وعمق معرفة الرسول ρ بهذه الأديان.

إن زواج الرسول ρ من خديجة رضي الله عنها كان من أهم العوامل التي أثرت في حياته الثقافية وتوجيهاته الروحية، وذلك لأنها وفرت له المستلزمات المادية والمعنوية التي تساعده على التأمل والتفكير وممارسة بعض الرياضات الروحية، كما أن معايشة الرسول ρ لخديجة لم تكن خالية من الآفاق الفكرية والروحية، وذلك لأن خديجة كانت امرأة واسعة الخبرة في الحياة، فقد تزوجت مرتين قبل زواجها من الرسول ρ كما اشتغلت بالتجارة، وعرفت بأنها امرأة حازمة كما تم توضيحه.

غير أن الجانب الأهم من كل ذلك، هو علاقة القرابة الوثيقة التي كانت تربطها بكل من ورقة بن نوفل بن أسد، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وكلاهما ابن عم لها، وهما من أبرز الأشخاص الذين عرفوا برفض عبادة الأصنام، والدعوة إلى التوحيد والبحث عن الدين الحق، دين أبيهم إبراهيم عليه السلام.

كان الرسول ρ على صلى جيدة بأولئك النفر من الأحناف وكان يتجاوب معهم في النفرة عن عبادة الأصنام والبحث عن الدين الحق، فقد قال الرسول ρ وهو يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل: إن كان لأول من عاب على الأوثان ونهاني عنها، أقبلت من الطائف ومعي زيد بن حارثة، حتى مررت بزيد بن عمرو وهو بأعلى مكة، وكانت قريش قد شهرته بفراق دينها، حتى خرج من بين أظهرهم وكان بأعلى مكة، فجلست إليه، ومعي سفرة لي فيها لحم يحملها زيد بن حارثة من ذبائحنا على أصنامنا، فقربتها له وأنا غلام شاب، فقلت: كل من هذا الطعام أي عم، قال: فلعلها أي ابن أخي ذبائحكم هذه التي تذبحون لأوثانكم؟ فقلت: نعم، فقال: أما إنك يا ابن أخي لو سألت بنات عبد المطلب أخبرنك أني لا آكل هذه الذبائح، فلا حاجة لي بها، ثم عاب على الأوثان ومن يعبدها ويذبح لها، قال: إنما هي باطل

لا تضر ولا تنفع، أو كما قال ρ، فما تمسحت بوثن منها بعد ذلك على معرفة بها، ولا ذبحت لها حتى أكرمني الله عز وجل برسالته.

لقد كان عمرو بن نفيل من الأحناف، وقد سعى هؤلاء الأحناف وهم يبحثون عن الدين الحق إلى الاتصال بأصحاب الكتب السماوية من يهود ونصارى، وكان هؤلاء يتحدثون عن قرب ظهور نبي جديد قد أزل زمانه، ينقذ الناس من الضلال والفرقة والانقسام. وكان بعضهم قد اعتنق النصرانية مثل عثمان بن الحويرث، وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل، وكان ورقة امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب.

ويبدو أن الرسول ρ لم يكن بعيدا عما يدور في أوساط هؤلاء الموحدين من هموم وأفكار، بل إن المصادر تضيف إلى ذلك أن الرسول ρ كان قد قابل بعض رهبان النصارى في رحلتيه إلى الشام، وقد أوردت بعض المصادر جوانب من أحاديث الرسول ρ معهم، ولا يستبعد أن يكون الرسول ρ قد قابل بعض اليهود والنصارى في مكة أو خارجها وتحاور معهم في بعض شؤون الدين والحياة.

إن الرسول ρ لم يكن يشارك قومه من المشركين عقيدتهم، وكان ينأى بنفسه عن مناسباتهم التي يتقربون فيها إلى الأصنام، وأنه كان منذ شبابه مع أولئك الموحدين من الأحناف الذين عدهم قومهم صابئة لأنهم صبأوا عن ديانة آبائهم وأجدادهم من أمثال زيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وورقة بن نوفل وغيرهم.

وقد أشارت بعض المصادر إلى أن الرسول ρ كان قد مارس في هذه المرحلة بعض أشكال العبادة والاعتكافات الروحية، كما كان يفعل بعض من يتنسك من أهل مكة، فقد ذكر أن الرسول ρ كان يخرج إلى غار حراء في كل عام شهرا من السنة، ينسك فيه، وكان من نسك في الجاهلية من قريش يطعم من جاء من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاروته وقضاه، لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة. وقد أشير إلى أن عادة التحنث في غار حراء إنما سنها عبد المطلب جد النبي، وكان أول من تحنث في هذا المكان شهرا من كل عام، وكان ذلك الشهر هو شهر رمضان، فكان إذا دخل هذا الشهر صعد حراء وأطعم المساكين، ثم تبعه على ذلك من كان يتأله ويتعبد، كورقة بن نوفل وأبي أمية بن المغيرة، فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر.

نزول الوحي على الرسول ρ:

يبدو أن فكرة الوحي لم تكن غريبة عن أذهان عرب ما قبل الإسلام، لذا فإن مشركي مكة لم يفاجأوا حينما علموا بخبر نزول الوحي على الرسول ρ، وكانوا قد قابلوا ذلك بنوع من الاستخفاف، فكان

إذا مرة عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أن غلام عبد المطلب ليكلم من السماء. ولكن المشركين أخذوا بمقاومة الرسول ρ وتكذيبه حينما عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر.

إن الوحي لم ينزل على الرسول ρ فجأة، بل سبقه إعداد روحي ونفسي طويل، وكان أبرز مظاهر هذا الإعداد النفسي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. فمكث على ذلك ما شاء الله أن يمكث، أي فترة طويلة نسبيان ربما امتدت عدة سنوات، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء.

وتشير المصادر إلى أن الرسول ρ كان يخرج إلى غار حراء في شهر رمضان، وأنه كان يصحب معه أهله، وربما كان ذلك مما اعتادت قريش أو من يتنسكون منها ممارسته.

إن أول مرة جاء فيها جبريل عليه السلام إلى الرسول ρ كانت في المنام، فقد روي أن رسول الله ρ قال: فجاءني وأنا نائم، فقال: اقرأ، فقلت: وما أقرأ؟ فعاد لي بمثل ذلك، ثم قال: اقرأ، فقلت: وما أقرأ؟ وما أقولها إلا تنجيا أن يعود لي بمثل الذي صنع بي، فقال: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم)، ثم انتهى، فانصرف عني وهببت من نومي، وكأنما صور في قلبي كتاب.

وقد أصاب الرسول ρ اضطراب وقلق شديدان من جراء رؤيته للوحي في المنام، وظن أن ذلك من قبيل الرؤى التي تظهر للشعراء أو المجانين، فقال يحدث نفسه أن الأبعد – يعني نفسه ρ– لشاعر أو مجنون؟ ثم قلت: لا تحدث قريش عني بهذا أبدا، لأعمدن إلى حالق من الجب فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها، فلأستريحن، فخرجت ما أريد غير ذلك. فبينما أنا عامد لذلك سمعت مناديا ينادي من السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، فرفعت رأس إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فوقفت أنظر إليه، وشغلني عن ذلك وعما أريد، فوقفت ما أقدر على أن أقدم ولا أتأخر، ولا أصرف وجهي في ناحية من السماء إلا رأيته فيها، فما زلت واقفا ما أتقدم ولا أتأخر، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، حتى بلغوا مكة ورجعوا، فلم أزل كذلك حتى كاد النهار يتحول، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعا إلى أهلي.

إن رؤية الرسول ρ لجبريل عليه السلام قد جاءت لتثبيت قناعته بصحة ما رآه في المنام، وأنه قد غدا رسول الله إلى الناس، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصورة من صور نزول الوحي بقوله: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ

بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *).

إن اضطراب الرسول ρ وقلقه من جراء نزول الوحي عليه يدل على أن هذا الأمر كان بعيدا عن تفكيره، على الرغم من تأملاته الروحية الطويلة واحتكامه ببعض الباحثين عن دين إبراهيم من الأحناف، وقد صارح زوجته خديجة بحقيقة قلقه الذي كان يحسه ويعذبه حتى بعد مشاهدته جبريل عليه السلام، وريته له رأي العين، غير أن خديجة لم تفاجأ بما أخبرها به، ولم تصدم مما سمعته، مما يدل على إحاطتها بشيء من أخبار مثل هذه الحالات الروحية، لذا فقد أجابته مطمئنة، بأنها تتوقع له أن يكون نبي هذه الأمة، لما تعلمه من صدق حديثه وعظم أمانته وحسن خلقه وصلة رحمه.

ومن أجل طمأنة الرسول ρ على حقيقة ما شاهد، فإن خديجة قامت فجمعت ثيابها عليها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد قرأ الكتب، وكان قد تنصر وسمع من التوراة والإنجيل، فأخبرته الخبر، وقصت عليه ما قص عليها رسول الله ρ أنه رأى وسمع، فقال ورقة: (قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة، إنه لنبي هذه الأمة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام، فقولي له فليثبت).

وهكذا، فقد قبل الرسول ρ حقيقة نزول الوحي عليه، واستقر في وعيه أنه قد غدا نبي هذه الأمة، لذت فقد أخذ يتطلع إلى ساعات نزول الوحي بشوق وتلهف، فلما فتر نزول الوحي عليه صعب الأمر عليه وأحزنه، حتى قال: قد خشيت أن يكون صاحبي قد قلاني وودعني، فجاء جبريل عليه السلام بسورة والضحى، يقسم له به وهو الذي أكرمه: (ما ودعك ربك وما قلى)، وفي رواية أخرى عن خديجة رضي الله عنها زوجة النبي ρ أنها قالت: لما أبطأ على رسول الله ρ الوحي جزع جزعا شديدا، فقلت له لما رأيت من جزعه: لقد قلاك ربك مما يرى من جزعك، فأنزل الله (ما ودعك ربك وما قلى).

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الأول

السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الأول

الروض الأنف: السهيلي: الجزء الأول

الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح